دور الوعي الأخلاقي في البيئة الحياتية

الدكتور عصام غصن عبود*

الملخص

يكتسب هذا البحث أهميته، كونه يخرج عن الطرائق التقليدية في معالجة البيئة الحياتية، وينطلق من أعماق النفس البشرية في معالجة الخلل الذي يعاني منه الإنسان بشكل عام، دون تحديد هويته وجغرافية وجوده.

ويُظهر أن مشكلة الإنسان مع البيئة تنبثق من عالم الأدوات التي صنعها في أثناء صراعه مع الطبيعة من أجل بقاء النوع البشري، وكلما طَّور الإنسان صناعة الأدوات، أخذت هذه الأدوات تحمل بذور فنائه، لأن جوهر المشكلات التي تؤثر في البيئة الحياتية سلباً يعود لأثر هذه الأدوات في المنظومة البيئية وفي الإنسان بوصفه جزءاً لا يتجزأ من هذه المنظومة.

تناول البحث طبيعة الإنسان ومصير الأخلاق الإنسانية في عالم يسير بخطا متسارعة نحو الكارثة الجماعية، ليصل إلى نتيجة مهمة، وهي أن الإنسان فقد رؤيته الأخلاقية بسبب الانفصال التام بين تطوره التكنولوجي، وتطوره الأخلاقي. مما أدى إلى تطور العقل الإنساني بعيداً عن الأخلاق بشكل عام، والوعي الأخلاقي بشكل

* قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق

خاص. وما لم يكن هناك تطور للوعي الأخلاقي موازياً للتطور التكنولوجي، فسوف تستمر عملية انهيار البيئة الحياتية، ويستمر معها تضخم العقل وانفلاته باتجاه صناعة المزيد من الأدوات بمعزل عن القيم الأخلاقية. وهذا البحث لا يُحمّل أي دولة من الدول مسؤولية انهيار البيئة الحياتية. فهي منوطة بعقل الإنسان في كل مكان، هذا الإنسان الذي فقد معنى الحب والتآزر بصورة يُحبط أي جهد يهدف إلى بلورة رؤية عالمية لمشكلات البيئة الحياتية.

1– مقدمة:

إن مفهوم الوطن بالنسبة للإنسان هو ذلك المكان الذي ولد فيه ونشأ على ترابه, هذا المفهوم يشمل المنزل والحي والقرية والمدينة والدولة أو الأمة, التي ينتمي إليها بجميع مشاعره وأفكاره وأحاسيسه. إنها رؤية رائعة لمفهوم الوطن تتضمن تمسك الإنسان بالأرض التي أبصر النور على ثراها , لكن هناك وطن أكبر من هذه الأوطان لم يدخل في وعينا كبشر إلا منذ وقت قريب, مع أنه كان وطننا على الدوام, إنه كوكب الأرض.

فقد حدث تطور كبير في الوعي الإنساني بعد أن اخترق الإنسان حدود الفضاء, وأصبح هناك نوع من الوعي الجديد لكوكب الأرض, يتجلى في اعتبار الأرض كائناً حياً, وهي كالأم الحنون التي تحتضن الكائنات الحية بمختلف تنوعاتها بين ذراعيها وقد عبر (أوغارميتشل) وهو سادس إنسان يهبط على سطح القمر عن هذا المفهوم وهو يتأمل كوكب الأرض من على سطح القمر فقال: كان كوكباً جميلاً, متناسقاً وديعاً أزرق اللون ذا سحب بيضاء, وهو ما يمنحك شعوراً عميقاً بالوطن, بالوجود, بالهوية,... إنه الشعور الذي أفضل تسميته بالوعي الكروي اللحظي. إن كل إنسان عائد من هناك يغمره شعور بأنه لم يعد مواطناً أمريكياً بل صار مواطناً كوكبياً[1]. ويشاركه هذا الشعور ملاح فضائي آخر هو (راسل شفايكارت) يقول: تدرك أنه على تلك البقعة, ذاك الشيء الصغير الأزرق والأبيض, توجد كل الأشياء التي تعني لك شيئاً, كل التاريخ والموسيقا والشعر والفن والموت والولادة والحب والدموع والفرح, وتقر بأنك جزء من هذه الحياة الكونية[2]. وقد أحدثت الصور الفوتوغرافية القادمة من الفضاء لكوكب الأرض تحولاً كبيراً في طريقة التفكير عن علاقة الإنسان بكوكب

[1] راسل, بيتر. صحوة الكرة الأرضية, ت. عدنان حسن, منشورات وزارة الثقافة, دمشق 1998، ص12.

[2] المرجع السابق، ص12.

الأرض, فقد أصبحت الصور رمزاً روحياً لعصرنا, إنها تمثل الوعي المتنامي لكوننا. نحن وكوكب الأرض نشكل جزءاً من منظومة واحدة وإنه لم يعد بمقدورنا أن ننفصل عن هذا الكل الواحد. وهناك اتفاق بين جميع الأديان السماوية, أن الله قد خلق الإنسان من التراب, بمعنى آخر أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة, انبثق منها ويمارس جميع نشاطاته عليها, ولا يخرج من جسدها حتى عندما يموت يعود إليها, ويتحلل في جسدها ليصبحا كلاً منسجماً. ووفقاً لمعطيات العلم فالجسد الإنساني هو جزء من مكونات الطبيعة, لأنه مؤلف من الكربون, والحديد, والفوسفور, والكالسيوم, والمغنيزيوم, والكبريت ...الخ, فالعلاقة بين الإنسان والبيئة ليست علاقة بين طرفين منفصلين, إنها علاقة اتحاد تتكون في جذورها الأشياء من أصل واحد, فلا يمكن أن نفصل الإنسان عن البيئة, ومن ثم لا يمكن لأي إنسان ممارسة أي سلوك باعتباره كائناً منفصلاً عن الطبيعة, لأن ارتباط الإنسان بالأرض فقط ليس ذلك الارتباط الأيديولوجي, الذي يحمل كماً ذاتياً يمنح كل بقعة من هذه الأرض خصوصيتها الإنسانية, إنما هو ارتباط حتمي من خلال تفعيل قوانين الطبيعة باتجاه وجوده الفيزيولوجي. وهو غير قادر على الحياة وفقاً لقوانين أخرى مفتعلة أو مفعلة, وفق منظور ما, لأنه بحاجة إلى هذه الأرض بالذات إلى سبر أغوارها, وتتلخص هذه الفكرة في ارتباط الإنسان بقوانين الطبيعة ارتباطاً حتمياً, إذ إنّ أي تغيير في هذه القوانين ستكون نتيجته مأساوية على وجوده. وتجري الآن دراسات جادة في إقامة منتجعات سياحية على سطح القمر ولا شك أن مشروعاً كهذا يُظهر بشكل من الأشكال عظمة الطموح البشري في اختراق حدود الأرض نحو العوالم الأخرى في هذا الكون الشاسع, ولكن بقليل من التأمل سنجد أن هذه المسألة تكنولوجية بحتة, أي إنّها عملية نقل تكنولوجيا أرضية من الأرض إلى القمر تحمل أماكن تصلح للحياة, أي إنّها لا تتعدى كونها عملية نقل شروط الحياة الموجودة على الأرض إلى سطح القمر, وأي خلل في نقل هذه الشروط سوف يؤدي إلى تدمير حياة هؤلاء المحظوظين الذين

يتحملون نمطية هذه المغامرة ومخاطرها. إذاً فحياة الإنسان مرتبطة بشكل كامل بالقوانين الطبيعية الموجودة على الأرض, ولن يستطيع تجاوز هذا المنطق الذي يحدد وجوده الخاص. إنه ارتباط حتمي بما نسميه بيئة حياتية أو بيئة الحياة، وبيئة الحياة هي ذلك الجزء من العالم الذي يؤثر فيه الإنسان ويتأثر به حيث يوجد المجتمع البشري ويتطور, والبيئة هي كل ما هو خارج عن كيان الإنسان, وكل ما يحيط به من كائنات وموجودات, فعناصر البيئة بالمعنى الشامل تجمع الهواء الذي نتنفس, والماء الذي نشرب, والأرض التي نسكن عليها, إنها كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية أو جماد بمعنى آخر, إن البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويمارس فيه حياته ونشاطاته المختلفة[1]. والبيئة الحياتية هي نتاج تأريخي للعلاقة بين الإنسان والطبيعة, وعلاقة الإنسان بالإنسان, وهي وحدة متجانسة من العالم المادي والإنسان الذي يعيش فيه, ويغيره عن طريق العمل, ويطوره يومياً دون توقف, عبر مراحل حياته. لكن حماية البيئة الطبيعية وتأمين شروط الحياة تزداد أهمية في عملية تجديد قوى الإنسان وصحته, في أثناء التوجه لتحسين قدراته الفيزيائية والنفسانية وتطويرها. إن العلاقة بين الإنسان والبيئة هي علاقة ترابط[2], ومن الأهمية القصوى أن لا ننظر إلى البيئة من منظور بيولوجي فقط, بل من منظور اقتصادي واجتماعي وأخلاقي وإنساني, وبذلك تكون النظرة إلى مسألة البيئة نظرة استراتيجية متكاملة من مختلف الزوايا والأبعاد, وعلى قاعدة هذا المنظور بالذات, منظور الأبعاد المتعددة والمتكاملة للبيئة, لا يمكن عزل البيئة عن الأفعال والطموحات والحاجات البشرية[3]. ومع أن الإنسان مؤلف في أساس تكوينه من مكونات عناصر الكون, فإنه وجد في وضع استثنائي,

[1] صباغ, مروان يوسف. البيئة وحقوق الإنسان, كومبيو نشر, بيروت1992، ص 24.
[2] م هولي, جي رجيها, جي سلارت. الإنسان والبيئة, ت. عصام عبد اللطيف, منشورات وزارة الثقافة والفنون, بغداد1979، ص19–20.
[3] صباغ, مروان يوسف. البيئة وحقوق الإنسان, ص18.

بحيث يؤثر في الطبيعة, يغير معالمها, ويمتلك القدرة على تغيير قوانينها, تلك القوانين التي أوجدته.

2- الإنسان والطبيعة:

إن هذه العلاقة المعقدة بين الإنسان والطبيعة نجمت عن عملية ارتداد غير منطقي للصيغة التي وجد الإنسان نفسه فيها باعتباره ابن هذه الأرض التي واجهت الإنسان بقوانينها الحتمية عبر عملية تطور دامت ملايين السنين. إنسان اليوم يواجه قوانين الطبيعة ضمن آليته المعقدة التي اصطنعها ضمن شروط ما يسمى جدلاً تطوره الحضاري, بمعنى آخر إن هذه القوانين هي التي صنعت الصفات الفيزيولوجية للإنسان عبر عملية التطور الطويلة الأمد. ولم يحدث التطور النوعي عبر مراحل تاريخ البشرية الطويلة فقط, بل قبل ذلك بأجيال عديدة من خلال الظروف الطبيعية التي سادت على الكرة الأرضية, وهذه الظروف هي التي حددت من ثمَّ تكوينه واتجاهات تطوره الذاتي, سواء من الناحية الجسمانية أو النفسية أم الاجتماعية والعلاقة المتبادلة هنا هي ذات تأثير متبادل سواء بطابعه السلبي أم الإيجابي, والبيئة التي اجتهد الإنسان لتكوينها حيناً, وتكيفها حيناً آخر عبر مراحل وجوده على سطح الأرض أخذت تضغط عليه بدورها لتقسره على التكييف وفق منطلق التحدي القاسي[1], وهذا ما بلور مسألة الصراع بين الإنسان والطبيعة, بحيث أصبحنا نعيش في عصر تكتفه المتناقضات وتلتهمه الماديات, وأضحى الإنسان أسير فوضى منظمة, فوضى زادته صراعاً مع الحياة, وتصارعاً مع المجتمع يلهث وراء المادة حتى أضحى أو يكاد أسيراً لوسائل عيشه التي ابتكرها بدل أن يكون العكس[2] ولعلنا هنا ندخل إلى جوهر المشكلة, إذ إن وسائل العيش أو الأدوات التي صنعها الإنسان بيديه, أصبحت عنصراً فاعلاً في توازنات البيئة الحياتية, لا بل أكثر من ذلك, إنها العنصر الأكثر تأثيراً في

[1] م هولي, الإنسان والبيئة، ص20.
[2] عطوي, عبد الله, الإنسان والبيئة, مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر, بيروت1993، ص7.

البيئة من جميع العناصر الأخرى. فكيف وصلت العلاقة بين الإنسان والبيئة إلى هذا الوضع المتدهور؟, وما قصة هذه الأدوات أو وسائل العيش التي صنعها الإنسان؟ وأين هو العقل الإنساني؟ وما هو دور الأخلاق الإنسانية؟ في كل هذا الدمار الذي يحدث؟ إنها أسئلة تتطلب الإجابة عنها العودة إلى البدء, حيث كانت الطبيعة تقوم بهذه الأدوار التي تحدد مصير الكائنات الحية التي تدب على سطحها. فقد قامت الطبيعة باحتضان جميع الكائنات الحية, وتوفير الظروف الملائمة لبقائها, وهذه الكائنات بعضها تكيف مع تلك الظروف وبعضها انقرض. أما الكائنات التي استطاعت الاستجابة لظروف الطبيعة القاسية, وحافظت على بقاء نوعها, فقد اكتسبت العضوية الملائمة مع هذه الظروف, وأصبحت جميع الأدوات اللازمة للبقاء داخل جسدها, فكل كائن حي عدا الإنسان يمتلك جميع شروط بقاء نوعه, وجميع الأدوات اللازمة لهذا التكييف داخل جسمه, أما الإنسان فلم يستطع اكتساب العضوية اللازمة لبقاء نوعه, من هنا كان الصراع من أجل البقاء مريراً, أو بشكل آخر وقف الإنسان عند الحد الفاصل بين البقاء والانقراض, فالجسد البشري لم يكتسب تلك الأدوات اللازمة لمواجهة قوانين الطبيعة ومنظومتها المعقدة, ولولا القشرة الدماغية التي عوضته عن الأدوات اللازمة للتكيف, لما تمكن الإنسان من امتلاك آليات التفكير والإدراك ومن ثم امتلاك المقدرة على صناعة أدواته بيده خارج الجسد, حيث عمل على إعادة تركيب الأدوات وصناعتها, واستطاع أن يستحوذ على جميع الأدوات الموجودة داخل الحيوانات والحشرات, ويعيد صياغتها على شكل أدوات مصنوعة من مختلف المواد الموجودة في الطبيعة. واستطاع أن يتكيف مع الطبيعة, ويضمن شروط بقاء نوعه واستمراره. لكنه لم يكتفِ بهذا النوع من التكيف, إنما تجاوز هذه الحدود من خلال خياله الجامح نحو كل شيء جديد خاضع لقانون الاكتشاف, وأصبح الإنسان بحاجة دائمة لصناعة أدوات جديدة وأصبحت هذه الأدوات هي التي تحدد المستوى الحضاري للإنسان والمجتمع الذي ينتمي إليه, ولم يعد المستقبل بالنسبة له يوماً خاصاً بتلك البنية

التشريحية التي يمتلكها داخل جسده, إنما في نمو أفكاره وعقائده وأدواته التي يصنعها. وهكذا أصبح الإنسان سيد مصيره خارج نطاق قوانين الطبيعة, وضمن آليتها بآن واحد[1]. لكن هناك مسألة مهمة في هذه العملية الارتقائية, التي قام بها الإنسان في أثناء صناعة الأدوات, وهي أن هذه الأدوات لا تأتي من خارج الطبيعة, إنما هي ضمن آلية وجود الطبيعة, وجزء من مكوناتها، وعملية صناعتها هي عملية استهلاك لموارد الطبيعة. وقد تبدو هذه المسألة للوهلة الأولى ليست بذات بال، إنما بقليل من التأمل يتضح لنا أن جميع الأنماط المتعلقة بمشكلات البيئة الحياتية مرتبطة بهذه المسألة المتمثلة بصناعة الأدوات، وتأمين المواد الأولية لصناعة الأدوات, ووجود الطاقة التي تعمل هذه الأداة بقوتها, ولو بقيت المسألة محصورة بعملية التكيف والقدرة على المحافظة على بقاء النوع البشري, لما كان هناك مشكلة. إنما امتلاك الإنسان لقوة الخيال فضلاً عن قوة العقل, أخرج هذه المسألة من حدودها الطبيعية إلى حدود مجهولة العواقب, فلم يعد الإنسان يكتفي بضمان شروط بقائه, إنما جمح به الخيال بعيداً عن هذا المطلب إلى حد فاق التصور, حتى غدت الطبيعة نفسها تعاني من هذا الجموح المفرط في ابتكار الأدوات, وطرائق استخلاصها من الطبيعة. وأصبح الإنسان صاحب القشرة الدماغية الرقيقة عبئاً على وجود الطبيعة, فوجوده ليس ضرورياً لاستمرار الحياة على سطح الكوكب, لأن الحياة استمرت على سطح الأرض دون العنصر البشري مدة تزيد على 4000 مليون سنة. ويمكن تشبيه ظهور الإنسان على سطح الأرض بالورم الخبيث الحديث الاندفاع, ولولا هذا الظهور لكان كوكب الأرض أفضل حالاً. إن وجه الشبه مع السرطان لا يمكن تجاهله, فالحضارة الحديثة تبدو كأنها تلتهم كل ما يقع في طريقها على سطح الكوكب, مستهلكة في عقود من الزمن الموارد المعدنية التي كانت الأرض قد ورثتها منذ بلايين السنين, وفي الوقت نفسه فإن البشرية تهدد بتدمير النسيج الحيوي الذي استغرق خلقه آلاف السنوات. إن

[1] نويل, إميل، الداروينية كما ترى اليوم. ت. وائل الأتاسي, منشورات وزارة الثقافة, دمشق1984، ص77.

الحضارة التكنولوجية تبدو بالفعل مثل ورم خبيث متفشٍ يفترس مضيفه السابق افتراساً أعمى بطريقة استهلاكية أنانية[1], وقد أدى تصاعد النشاط الاقتصادي للمجتمع البشري, إلى خلق حالة معقدة في تاريخ علاقة الإنسان بالطبيعة. فلكي يصنع الإنسان أدواته يأخذ من الطبيعة مليارات الأطنان من المواد الخام والخامات العضوية, وبعد تصنيعها ومعاملتها تعود إلى البيئة المحيطة بالإنسان كميات ضخمة من الفضلات والنفايات الصناعية وغير الصناعية, وهذا يؤدي إلى تغير في تكوين العناصر الأساسية لبيئة الحياة, التربة, المياه, الجو, وهو يؤثر بدوره في الكائنات الحية, وفي مصادرها الغذائية, وكلما تمادى الإنسان في تطوير أدواته, ازداد الضرر الناجم عن هذه العملية, والبيئة الحياتية هي التي تتحمل عبء هذا الضرر وتبعياته[2]. إن المشكلات البيئية واقع لا يمكن إنكاره فالجوع مشكلة بيئية يعيشها أكثر من ثلث سكان العالم, والمرض مشكلة بيئية لا تخلو منها مستوطنة سكانية في البلدان الصناعية والنامية على السواء, واختناق الطرق بالسيارات, مشكلة تعاني منها المدن الكبيرة, والتلوث مشكلة معقدة لا تخلو منطقة في العالم من آثارها المؤذية والقاتلة أحياناً. إن مشكلات البيئة كما أصبح معروفاً من أعقد المشكلات التي تواجه حاضر الإنسان ومستقبله, ولا يزال التصدي لمشكلات البيئة في بدايته[3], والضرر الذي يسببه الإنسان للبيئة الحياتية يجعل هذه المشكلة في قمة المشكلات الأخلاقية التي تواجه جوهر الإنسان المعاصر ومصيره, لكن وقبل أن نتعمق في الجانب الأخلاقي لهذه القضية الحيوية, لابد من التوغل أكثر في سراديب البيئة الحياتية, كي نستطيع أن نقف على فداحة الأخطار التي تحملها هذه المشكلات على مستقبل البشرية. يُعد التلوث من أهم المشكلات التي تعاني منها البيئة الحياتية, والتلوث هو الطرح المقصود أو

(1) راسل, بيتر, صحوة الكرة الأرضية، ص28–29.
(2) م هولي, الإنسان والبيئة، ص115.
(3) د.عطية, عاطف, د. عبد الغني, عماد، البيئة والإنسان, منشورات جروس بروس, طرابلس, لبنان, 1998، ص225–226.

العارض للنفايات, الناجمة عن النشاطات البشرية التي تؤدي إلى نتائج ضـــارة, مثـــل التغيير الكمي و الكيفي[1] في مكونات البيئة بحيث تعجز الأنظمة البيئية عن اســـتيعابه دون أن يختل اتزانها[2] وهناك الملوثات البيولوجية, وهي الأحياء التي إن وجدت في مكان أو زمان غير مناسبين تسبب أمراضاً للإنسان والكائنات الحية الأخـــرى, أمـــا الملوثات الكيماوية, فهي المبيدات بأنواعها, والغـــازات المتـــصاعدة مـــن الحرائـــق والسيارات والمصانع وآبار النفط, والرصاص والزئبق والجسيمات الدقيقة المتـــسربة من مصانع الإسمنت والكيماويات التي تلقى في التربة. وآثار هذه الملوثات متعددة في الإنسان ونباتاته, وحيواناته, ومنشآته, والهواء الذي يستنشقه, والماء الـــذي يـــشربه, والطعام الذي يأكله[3] وتتمثل الملوثات الفيزيائية في الضوضاء[4] والتلوث الحـــراري, والإشعاعات بأنواعها خاصة الناتجة عن التفاعلات النووية, وتجـــارب الانفجـــارات النووية. أما بالنسبة إلى تلوث الهواء فالكارثة أعظم وأشد خطورة, ومع تزايد النشاط الصناعي وتطور وسائل النقل, وازدحام المدن بالسكان, تعرض الهواء –ولا يـــزال– لأنواع شتى من المعوقات, مثل أكاسيد الكربون, وأكاسيد الكبريت, والمطر الحمـــضي

[1] يحدث التغيير الكمي عندما تزداد المكونات الطبيعية للبيئة عن النسبة المسموح بها, ويـــزداد ثـــاني أكسيد الكربون على نسبته كنتيجة للحرائق, وزيادة درجة الحرارة في المياه من جرّاء ما تلقيه بعـــض المصانع وتسرب النفط في مياه البحر من الناقلات, ويحدث التغيير الكيفي من إضافة مركبات صناعية غريبة إلى الأنظمة البيئية, حيث تتراكم في الماء والهواء والتربة, مثل المبيدات التي تستخدم للقـــضاء على الآفات الزراعية.

[2] صباريني, سعيد. رشيد الحمد, محمد. البيئة ومشكلاتها, سلسلة عالم المعرفة, الكويت، عدد 1984/422. ص150.

[3] د. عطية, عاطف, د. عبد الغني, عماد. البيئة والإنسان, ص232

[4] الضوضاء: هي مجموعة الأصوات التي لا تؤدي في مجموعها إلى معنى واحد وهي إن تجـــاوزت شدتها الحدود المسموح بها تؤدي إلى تلف آني أو دائم بالسمع , وبالحدود المتوسطة يـــؤدي تعـــرض الإنسان لها بشكل متواصل إلى الكثير من الأذى النفسي والجسدي, ويصبح سريع الغضب, والإثـــارة, كثير الشكوى, قليل القدرة على التركيز الفكري, ومن= =الناحية الصحية تزيد سرعة النبض, وتـــزداد إفرازات بعض الغدد مما ينجم عنه ارتفاع نسبة السكر بالدم, ومعظم أمراض الدماغ والأمعاء والقلب.

والضباب الملوث بالدخان أو ما يعرف بالضبخان[1]. ولهذه الملوثات آثار سلبية متعددة ومتنوعة في الإنسان والحيوان والنبات والممتلكات, وتقسم حسب تأثيرها إلى ملوثات مهيجة, وملوثات سامة, وملوثات صلبة. أما تلوث المياه فليس بأقل خطورة, لأن حاجة الإنسان إلى المياه الصالحة ليس أقل أهمية من حاجته إلى الهواء. إن حجم المياه في البيئة يفوق حجم اليابسة, لكن الصالح منها لا يتعدى 1% من المجموع العام, وحتى هذه النسبة تتعرض للتلوث, من فضلات الإنسان المنزلية, والمجاري الصحية, ومجاري تصريف مياه الأمطار, والنشاطات الصناعية والزراعية, وعمليات استكشاف النفط وتصديره. وتشكل مخلفات المصانع التي تلقى في المياه دون تنقية أو معالجة, مصدراً للتلوث الكيماوي, مثل الكبريت ومركبات الزئبق والنحاس والزنك والنيكل, وتكمن الخطورة في هذه المركبات السامة في انتقالها للإنسان عن طريق السلاسل الغذائية, ولعل أخطر هذه الملوثات مركبات الزئبق التي يؤدي وجودها في جسم الإنسان, ولو بنسب قليلة إلى ارتخاء تدريجي في العضلات, وفقدان البصر وتلف في المخ وأعضاء الجسم الأخرى, قد تتبعه حالات من الشلل والغيبوبة والموت. أما عن التربة فإن تلوثها يُشكل كارثة بيئية مستقلة, لأن التربة تُعد مورداً متجدداً من الموارد البيئية, وتتكون من مواد صلبة عضوية وغير عضوية إضافة إلى الماء والهواء والكائنات الحية, والمبيدات ليست الملوثات الوحيدة للتربة, فكل ما يلوث الماء والهواء يلوث التربة أيضاً, فضلاً عن الري غير المنظم , وقصور نظام الصرف الصحي, يعرض التربة لتراكمات الأملاح , مما يقلل من إنتاجها. وإذا لم يستخدم السماد بالشكل المناسب كماً ونوعاً, فإنه يلوث التربة ويقلل من إنتاجها ويحولها إلى بوار[1]

[1] المطر الحمضي ينشأ عن تفاعل أكاسيد الكربون وأكاسيد النتروجين المنبعثة في الهواء الجوي وتساقطها مع المطر, وهذه الأكاسيد يحملها الهواء إلى مسافات بعيدة , لذلك يعدُّ المطر الحمضي مشكلة بيئية عالمية. والضبخان هو الضباب الملوث بالدخان, وينتج عندما تختلط أنواع عديدة من الملوثات" دخان وأتربة وغازات بقطرات الماء المكونة للضباب.

[1] د. عطية, عاطف, د. عبد الغني, عماد. البيئة والإنسان, ص239.

وكل هذا يعني أن المشكلات التي تنجم عن التلوث, تهدد حياة الإنسان وتجعله يعيش في خطر دائم, فالغذاء ملوث, والماء ملوث, والهواء ملوث, وهذا يؤكد أن مشكلة التلوث مأساة مهلكة تشمل الكرة الأرضية بنسب متفاوتة صارت اليوم تهدد الوجود البشري كنوع, وتدق أجراس الخطر في كل مكان,.. فقد أصبح الإنسان يرتاب في طعامه وشرابه وهوائه[2] ولا يُعد تلوث البيئة المشكلة الوحيدة التي تعاني منها البيئة الحياتية, فهناك مشكلة استنزاف موارد الطبيعة وهي لا تقل خطورة عن سابقتها, لأن موارد البيئة الدائمة والمتجددة, وغير المتجددة[3], ثروات متاحة للإنسان توفر له حياة كريمة. وقد تصرف الإنسان كناهب لهذه الموارد, وقام باستنزافها بشكل متواصل, فلم تسلم منه الغابات والتربة والأسماك, والطيور, والفحم, والنفط والغاز الطبيعي, والمياه الجوفية, ولم تتمكن التكنولوجية التي طورها الإنسان حتى الآن من إنتاج البدائل التي تعوض النقص الكبير في الموارد الطبيعية المستنزفة. ومن كان يراهن على مقدرة الإنسان على إيجاد موارد جديدة, تحل محل المستنزفة خاب أمله بعد كل هذا التناقص الذي أصاب الموارد الطبيعية في كل مكان[4]. ويُعد الاستنزاف العشوائي لموارد الأرض الطبيعية, بصوره هوجاء حمقاء غير عقلانية من أهم عوامل تشويه البيئة, ومع استمرار هذا الاستنزاف يمكن أن تُدَمر البيئة بشكل نهائي, بحيث لن يبقى على سطح الأرض, أو في باطنها ما يبدده الإنسان, وفي أضعف الأحوال ما يضمن بقاءه واستمرار نوعه[5] فلأول مرة من تاريخ البشرية بدأنا ندرك بأن مصادر كرتنا الأرضية ليست بلا نهاية, لا من حيث المعادن والأوكسجين, ولا الأغذية, ولا ماء الشرب. إن استنفاذ هذه المصادر سوف يظهر للعيان خلال وقت يتراوح ما بين بضعة

---

[2] المرجع السابق، ص239.

[3] الموارد الدائمة: هي العناصر الأساسية في حياة الإنسان مثل الشمس والماء والهواء .والموارد المتجددة: هي الزراعة بشقيها الحيواني والنباتي. والموارد غير المتجددة: هي الموارد الطبيعية مثل الفحم الحجري والنفط والغاز الطبيعي والمعادن المختلفة.

[4] د. عطية, عاطف, د. عبد الغني, عماد. البيئة والإنسان، ص239.

[5] صباغ, مروان يوسف. البيئة وحقوق الإنسان. ص33–34.

عقود من الزمن وقرن. ومع افتراض أن الاحتياطي غير مقدر بدقة, وأنه في الحقيقة على خمسة أضعاف ذلك, فالأرقام التي يمكن تقديرها تضع الحديد أمام مدة زمنية قد تصل إلى قرنين, أما النفط فإن مسألة نفاذه لن تتجاوز الخمسين عاماً. فالخيارات محدودة, إما أن نفكر بمصالحنا على المدى القصير ونتابع التوسع الذي له مدلولاته, والذي يصل بنظامنا الإجمالي حتى آخر حدود الأرض إلى الانهيار النهائي, وإما أن نحدد الهدف, ونتعهد بالوصول إليه, وأن نباشر تدريجياً وبدقة تحولاً نحو الوضع المتوازن[1] المتمثل في وضع برامج دقيقة لاستهلاك موارد الطبيعة بشكل علمي مدروس. أما مشكلة التضخم السكاني في العالم, فهي من المشكلات التي قد تؤدي إلى تفاقم بقية المشكلات البيئية, باعتبار أن ثمة علاقة مباشرة بين عدد السكان وبين الضغط على البيئة الحياتية. والمزيد من السكان يتطلب المزيد من الماء والغذاء والمسكن, والمزيد من الطاقة, وهذا يعني المزيد من التلوث, والمزيد من كل شيء, والزيادة في العالم تستدعي التأمل ,لأن الزيادة الإجمالية المتوقعة خلال العقود الثلاثة القادمة ستبلغ (3.200) مليار نسمة, وحسب الدراسات في قسم السكان بالأمم المتحدة, فإن أقل من مئتي مليون من هذه الزيادة المتوقعة ستكون في البلدان المتقدمة, في حين أن الثلاثة مليارات نسمة ستكون متوقعة في البلدان النامية[2]. وبشكل أكثر وضوحاً فإن الزيادة المحدودة للسكان ستحدث في البلدان المتقدمة القادرة على تلبية الحاجات الأساسية للإنسان, وتوفير فرص العيش الملائم, أما الزيادات الضخمة للسكان, فستكون في البلدان النامية والفقيرة, والتي تعاني من نقص شديد في الموارد الاقتصادية والخدمات, والتي يتعرض بعضها حالياً إلى الجوع, ويفتقر مواطنوها إلى ظروف العيش المطلوبة حتى في خطوط الحدود الدنيا[1]. فالمشكلة إذاً قابلة للتطور

[1] رانفيه لوبرانس, العلم وسعادة الإنسان, ت. جميل أنيس سعيد. منشورات وزارة الثقافة, دمشق1995، ص179.

[2] مروان, يوسف الصباغ. البيئة وحقوق الإنسان، ص38.

[1] مروان, يوسف الصباغ. البيئة وحقوق الإنسان، ص38.

إلى الحد الذي تصبح فيه الحياة في المجتمعات النامية مستحيلة, وهذا بالطبع سينعكس على التوازن الطبيعي للأنظمة البيئية لأن هذه المشكلة المتفرعة من جميع المشكلات البيئية تعدُّ النتيجة النهائية لكل ما يحدث في البيئة الحياتية من خراب ودمار. لأن البيئة الحياتية بإطارها الشامل نظام كبير الحجم, كثير التعقيد, تشكل في مجموعها وحدة متكاملة, تتميز بالاستمرار والاتزان, وما من شك أن مشكلات مثل التلوث, واستنزاف موارد الطبيعة, وزيادة السكان تؤدي إلى الإخلال بالتوازن في المنظومة البيئية, وسوف يؤدي تفاقم هذا الخلل إلى كوارث شاملة على صعيد مستقبل وجود الإنسان على سطح الأرض. والكارثة المرتقبة ضمن هذا السياق تتمثل في أن هذا الإخلال قد وصل إلى طبقات الجو العليا, إلى طبقة الأوزون[2] الواقية للحياة من الأشعة فوق البنفسجية, وهناك أدلة قاطعة تثبت أن حزام الأوزون يتعرض للدمار والتحلل, فإذا تفاقمت هذه المشكلة, وأُفسدت طبقة الأوزون أو قضي عليها تصبح الأرض بمن عليها معرضة للدمار الشامل. وتقع مسؤولية تدمير طبقة الأوزون على المركبات الكيميائية الناتجة عن عوادم محركات الطائرات النفاثة, والأسمدة النتروجينية, والنفايات السامة, والغازات التي تطلقها مداخن المصانع, والمواد الكيميائية المستخلصة من الفلور والكربونات وغاز الفريون المستخدم في التبريد, وتتسبب الانعكاسات الناتجة عن هذه المشكلة بأمراض الجلد, وتغير المناخ, وتدمير غابات الأرض, وتضاؤل إنتاج الأراضي الزراعية, والقضاء على غالبية الأحياء باستثناء الحشرات التي تستطيع الصمود أمام تأثيرات الأشعة[3] وكأن الإنسان بأفعاله المضرة بالبيئة يقدم الأرض هدية إلى الحشرات تلك, لأنها ستصبح هي المخلوقات الوحيدة القادرة على البقاء.

---

[2] الأوزون: هو شكل من أشكال الأوكسجين موجود في الطبقة العليا من الجو, يحول دون وصول كميات كبيرة من الإشعاع الذي تبثه الشمس على الموجات فوق البنفسجية.

[3] د. عطية, عاطف, د. عبد الغني, عماد. البيئة والإنسان، ص244

3– العقل والأخلاق والبيئة الحياتية:

بعد كل هذا يحق لنا أن نسأل أليست المشكلة هذه مشكلة أخلاقية بالدرجة الأولى؟ ويكبر السؤال ليصل إلى حدّ الشك بالمسألة الأخلاقية برمتها، باعتبارنا قد تعودنا أن نفهم أن الإنسان كائن أخلاقي بمعنى إنَّه يريد الخير لنفسه وللآخرين. فما الذي يحدث؟ أين إنسانية الإنسان؟! وما جدوى العقل البشري؟ أليست الثقة بالعقل البشري عنوان كل عملية تطور، وكل عملية رقي وتقدم؟ أليست هذه المقاييس هي التي تُصنّف من خلالها المجتمعات البشرية إلى دول متقدمة، ودول متخلفة، لماذا تسير عجلة التطور إلى إحراق الأرض ومن عليها، لا بد أن يكون هناك خلل في بناء العقل البشري خلال رحلته الطويلة في اكتشاف الكون. فقد وضع الإنسان معايير التقدم والتطور دون أن يُدخل الأخلاق الإنسانية ضمن هذه المعايير. إن السلوك الإنساني وقواعد هذا السلوك، يشملها علم مستقل، وهو علم الأخلاق، فهل أخذ هذا العلم حقه كبقية العلوم؟ وهل أخذت الأخلاق مكانتها بوصفها جزءاً مهماً من مكونات العقل الإنساني، إن جميع الأجوبة عن هذه الأسئلة وعن أسئلة كثيرة تدور في المحور نفسه، تشير إلى مسالة مهمة، وهي أن العقل الإنساني قد تطور، وتضخمت منجزاته، وهو فاقد لأهم مكوناته الأساسية وهي الأخلاق، لذلك نستطيع القول: إنَّ العقل الذي وصل بالطبيعة إلى هذه الحالة بإيجابياتها وسلبياتها، هو عقل ناقص التكوين.

الأخلاق هي مجموعة قواعد السلوك التي يمكن للإنسان إذا التزمها بلوغ غايته والغاية القصوى للإنسان تكمن في الحفاظ على جوهر وجوده الإنساني, أي البحث عن الجانب الأخلاقي الذي يمس جميع الناس، و بهذا لا بد من تقييم الحالة الأخلاقية السائدة للوصول إلى قواعد عامة للسلوك الإنساني. والأخلاق لن تكون ذات قيمة إلا إذا وضعت في نطاق إمكانية اكتشاف المعطيات الواقعية للتجربة الأخلاقية للبشر، فالأخلاق يجب أن تمتلك القوة الكامنة من أجل تحويل معطياتها إلى وقائع مستخلصة من صميم التجربة الإنسانية. فكما أن هناك قوانين وضعية في الطبيعة يجب اكتشافها،

أيضاً بالآلية الذهنية التي تكتشف فيها القوانين الوضعية، يجب أن تُستنبط القوانين الأخلاقية من التصور الكلي للكائن العاقل بشكل عام، ولهذا لا بد من بناء الإرادة المسترشدة بالمعرفة كي نصل الخير الأخلاقي الحقيقي[1]. ويستطيع الإنسان أن يغير الطبيعة بفضل وجوده الشخصي وقواه الفاعلة وهذا يعني أنَّه يستطيع أن يتلاعب بالقوانين التي تحدد نظام الطبيعة وتحمي وجودها، وتتحدد علاقة الإنسان بالواقع الموضوعي الذي تُشكل البيئة الحياتية أهم مكوناته وفقاً لمنظور الذات الكلية الشاملة للإنسان والطبيعة وجميع تداعيات هذا التآلف الحتمي بينهما، لكن ما حدث هو عملية عزل تام للعناصر الإنسانية عن مغزاها وسر وجودها، لأنَّ العلاقات الإنسانية تُشكل أساساً لابد من الالتزام بجميع جوانبه، وتتحدد علاقة الإنسان بالواقع الموضوعي وفقاً لمنظور الوعي بشكل عام ووعي الذات الكلية، والوعي الأخلاقي، باعتبار أن الوعي شكل من أشكال انعكاس الواقع الموضوعي[2]، وهو شكل بشري خاص محايث للوجود بشكل تام لأنه استيعاب للواقع الموضوعي ضمن آليات وجود الإنسان، وحيثيات هذا الوجود، وللوعي مغزاه في معرفة الأشياء واستيعابها واستجلاء ماهيتها، فهو ليس انعكاس العالم الموضوعي فقط، إنما هو وعي الإنسان لنشاطه النفسي، ويشتمل فضلاً عن النشاط الفكري على الخيال والحدس والانفعال والإرادة والضمير[3].

---

[1] بدوي عبد الرحمن، الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت1976، ص10-15.

[2] الموسوعة الفلسفية، إشراف: م. روزنتال، ب. بودين، ت. سمير كرم، دار الطليعة، بيروت1980، ص 587.

[3] المعجم الفلسفي المختصر، إشراف: ب بليبركا، ي ك بانتينا. ت: توفيق سلوم، دار التقدم. موسكو 1988، ص546.

ويؤلف الوعي مجموع العمليات العقلية التي تشترك إيجابياً في فهم الإنسان للعالم الموضوعي، وينفصل الوعي عن الحالة الجزئية، التي يقوم من خلالها العقل في تشكيل العالم الموضوعي المشوّه في الذهن الإنساني[1]، وهذه مشكلة واجهت الإنسانية بشكل حاد منذ بزوغ عصر النهضة الأوروبية، حيث ساد ما يسمى بالعقلانية، قبل أن تتم عملية الرصد التام والكامل لمكونات العقل البشري وإمكانياته, ولم يمتد إلى جميع الجوانب المحايثة للوجود الإنساني، وخاصة علاقة العقل بالأخلاق. فأُغفل أهم جانب من جوانبه، وهو الجانب الأخلاقي. إن هذا الإغفال في مرحلة من مراحل تطور العقل البشري كان طبيعياً وناتجاً عن سرعة تقدم العقل في المجالات التطبيقية مقارنة ببطء تطوره في المجال الإنساني النظري، وفي هذه المراحل حكمت المذاهب النظرية في الأخلاق صيرورة المجتمعات الإنسانية، ونشأت مذاهب تنكر أية علاقة للعقل بالأخلاق، ونشأ الموقف اللاإرادي[2]، الذي يقول: إنَّ العقل ليس عاجزاً –بحكم ما يفرضه الواقع– عن القبض على الحقائق الخلقية، بل إنّ الأخلاق بحكم طبيعتها خارج إطار العقل، وهذا يعني بدوره إنّه حتى نظرياً، لا يمكن أن توجد معرفة خلقية، أي إنّ مفهوم المعرفة الخلقية غير قابل للتطبيق[3]. ومن هذا الموقف سُحب العقل خارج إطاره الإنساني، وسُحبت الأخلاق خارج معطياتها الواقعية، فوقع العالم في فوضى نرى آثارها السلبية تنعكس ليس على مصير شعب من الشعوب فقط، بل على مصير الأرض وما فيها. إنّ غياب المنظومة الأخلاقية عن تطور البحوث العلمية وتطبيقاتها، هو أهم أسباب ما يحدث الآن من دمار للبيئة الحياتية، فالعالم يتصرف بنفسه اليوم

---

[1] الموسوعة الفلسفية، ص587.

[2] اللاإرادية: نظرية تنكر كلياً أو جزئياً إمكانية معرفة العالم، وقد استخدم الاصطلاح أول مرة، العالم البريطاني، توماس هكسلي، وتنطلق اللاإرادية من محاولة الحد من العلم، ورفض التفكير المنطقي، وشدة الانتباه بعيداً عن إدراك القوانين الموضوعة للطبيعة، وخاصة قوانين المجتمع (الموسوعة الفلسفية ص402).

[3] الضاهر، عادل الأخلاق والعقل، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1990، ص17.

خارج إطار الأخلاق، وداخل عقل متضخم غير مُـروّض، وهـذا العقـل بـالمفهوم الإنساني هو عقل ناقص التطور.

إنَّ الإنسان لم يُكمل دورة تطوره الكاملة بعد، لأنَّ العقـل لـم يُكمـل مكوناتـه الأساسية التي بمجملها، وبمجموع صفاتها الإنسانية، تصبح قادرة على قيادة البـشرية نحو برّ الأمان، فالأخلاق ليست مسألة معرفية فقط، إنما هي أحد الأسس التي تـشكل جوهر العقل الإنساني، وهذه النظرة للعقل التي تجرده مـن أيـة وظيفـة جوهريـة معيارية، لا تزال آثارها واضحة في فلسفتنا المعاصرة، إنها تظهر أكثر ما تظهر، في التميز الحاد بين المعرفة والقرار، بين صيرورة تعاملنا مع الواقع لفرض النفـاذ إلـى حقائقه والقبض عليها، وصيرورة تقييمنا لغايات متباينة لغرض الوصول إلـى قـرار بخصوص ما يجدر، أو ما يلزم تحقيقه من بينها[1]، فمع التطور الهائـل فـي جميـع مجالات العلوم التطبيقية وحتى النظرية والإنسانية منها لم تستطع الأخـلاق بوصـفها علماً مستقلاً أن تطور نفسها، كي تصل إلى مراكز القرار في قمة الهـرم الإنـساني، ومن المعروف أن الثقافة لن تصل إلى المستوى الإنساني المطلوب إذا لم تنتزع القدرة على اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ضمن الالتزام بجميـع الجوانـب التطبيقية في المجتمع. وإذا نظرنا إلى الأخلاق بوصفها منظومة من القواعد والمعايير المتعلقة بالسلوك، فإننا لا شك سنجعل مشكلة تسويغ الأخلاق عقلياً مشكلة تنشأ علـى مستوى ذات وظيفة اجتماعية على وجه التحديد، ولذلك فالسؤال المتعلق إذا كان هناك ثمّة مسوغ عقلي للقواعد والمعايير، هو المناسب لقيام الأخلاق بوظيفتها الاجتماعيـة، إن التسويغ العقلي للأخلاق أمر غير مستقل بصورة مطلقة عن نتائج العقل النظـري، فإنَّ منظومة من القواعد والمعايير هي الأنسب لغـرض قيـام الأخـلاق بوظيفتهـا الجوهرية، أمر لا يمكن فصله عن طبيعة البشر الاجتماعية والنفسية, ولا حتـى عـن ظروفهم التاريخية ومستواهم التطوري وطبيعة القاعدة المادية للمجتمع، لا بد إذاً مـن

[1] المرجع السابق، ص17.

إيجاد مسوغ عقلي لتبني منظومة معينة من القواعد و المعايير بوصفها الأنسب لغرض قيام الأخلاق بوظيفتها الاجتماعية[1]، وإذا كان الإنسان يخلق القيم، جزئياً، فإنّ ذلك لا يتعارض مع افتراض وجود أساس عقلاني وموضوعي للقيم، فإذا كانت عملية خلق القيم تخضع لمعايير عقلانية وموضوعية، فإنّ نسبية القيم لا يمكن أن تعني افتقارها إلى أساس عقلاني، ومن ثم موضوعي، إنّ هذه المسألة تصبح شديدة الوضوح في ضوء فهم مشكلة التسويغ العقلي في الأخلاق[2]، وكل ذلك يصبح ضرورياً إذا أدركنا الأزمة التي تعاني منها مسألة القيم الإنسانية في ضوء الفوضى التي تكاد أن تكون مبرمجة لأبعاد الإنسان عن حقيقة وجوده. إن هذا الهروب من إعطاء العقل الإنساني مكوناته، يضع الإنسان والأرض التي يعيش عليها بين فكي كماشة، قوانين الطبيعة التي لا تقبل التلاعب من الخارج، وذاته المهمشة من الداخل، وحدث الخطأ التاريخي الرهيب في رحلة تطور الإنسان، عندما تطورت التكنولوجيا، وحدثت الثورات العلمية جميعاً، التي زادت من قدرة الإنسان على السيطرة على قوانين الطبيعة دون أن تشمل هذه الثورات الوعي الأخلاقي. وكان يجب أن يرافق عملية التطور في صناعة الأدوات تطور من نوع آخر يعدُّ أكثر أهمية، هو التطور في صناعة الوعي الإنساني بشكل عام، والوعي الأخلاقي بشكل خاص، لكن ذلك لم يحدث.

فإذا كانت صناعة الأدوات هي من أهم متطلبات الإنسان من أجل تكيّف أفضل مع الطبيعة، إنما هناك متطلبات من نوع آخر للتكيّف الداخلي، وتسمو هذه المتطلبات على صناعة الأدوات قيمة وأهمية، متمثلة بالوعي باعتباره الوعاء الكلي لجميع العمليات العقلية التي تشترك إيجابياً في فهم العالم الموضوعي، ولن تنجح عملية السيطرة على قوانين الطبيعة و تغيرها نحو الأفضل دون تمكن الإنسان من السيطرة

---

[1] المرجع السابق، ص372–373.

[2] المرجع السابق، ص391.

على حالة الوعي، لأن وعي الذات هو المرحلة الأعلى في تطور الجنس البشري، وهو العنصر الخلاق في التفاعل مع الواقع الموضوعي، ومسألة الوعي ليست غائبة عن أي جانب من جوانب نشاطات الإنسان على سطح الأرض باعتبار أن الوجود الاجتماعي هو حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وخاصة عملية إنتاج الخيرات المادية والعلاقات التي تنشأ في أثناء هذه العملية[1]. وهذا الجانب من المسألة هو موضوع اهتمامنا لأنه الجزء الأكبر من مشكلة البيئة الحياتية. ومن هنا نستطيع أن ندرك الدور الكبير الذي يمكن أن يقوم به الوعي الأخلاقي في ترشيد إنتاج الخيرات المادية، وصناعة الأدوات، وانطلاقاً من مسألة الوعي الأخلاقي يتم تقييم السلوك الإنساني بمقدار ما يشكل خيراً للبشرية. فالوعي الأخلاقي لا ينظر إلى الظواهر من جوانب مشروطيتها السببية بل من زاوية قيمتها بالنسبة إلى الإنسان، لأنه من أهم خصوصيات الوعي الأخلاقي، نشاط الإنسان، وأهم المخاطر التي تهدد الوعي الأخلاقي، عملية إخراج الواقع الموضوعي خارج إطار المسألة الأخلاقية، وسحب منطق الوعي على ميادين خيالية لا يصلح التطبيق فيها[2]، وبشكل عام وضمن هذه الأسس والشروط، نستطيع أن نؤكد أن الوعي الأخلاقي يعاني إنسانياً من تناقض عميق، وهذه المشكلة ليست مُتجذّرة فقط في المجتمعات النامية، إنما هي موجودة بشكل أكثر حدّة في المجتمعات المتقدمة، وتتبلور هذه المشكلة في المجتمعات النامية، في تلك البنية الأخلاقية الانفعالية غير القادرة على تحريك المجتمع باتجاه القرارات السليمة بما يخصّ المجتمع وحياة الناس، وهذه البنية الأخلاقية بنية مشوّهة سُحب منها منطق العقل والمنطق. وتبدو الصورة في المجتمعات المتقدمة معكوسة تماماً فإنّ ما يحكم هذه المجتمعات هو العقل الذي يشكل جوهر حياة الناس، ويُتخذ أداة لمختلف

---

[1] الموسوعة الفلسفية، ص530.

[2] معجم علم الأخلاق، إشراف ايغوركون، ت: توفيق سلّوم، دار التقدم، موسكو1984، ص424-428.

النشاطات الفاعلة على صعيد القرارات الأساسية التي تحرك المجتمع نحو الأمام، لكن هذا العقل تطور بشكل غير كامل، وسُحبت منه الطاقات الأخلاقية التي تؤهله للقيام بدوره الإنساني السليم. في البلدان النامية يؤدي غياب العقل إلى نشوء حالة مستعصية في وعي الإنسان لذاته، ويُكَرس الوعي الأخلاقي في ميادين غير عملية بعيدة عن الواقع الموضوعي، ويُصَنع الإنسان المشوه غير القادر على استيعاب ما يحدث لمجتمعه من ويلات ومآسٍ باعتبار أن وعيه الأخلاقي بعيد عن العقل، مستنبط من مصادر غيبية غير قادرة على تفسير ما يحدث في العالم من تحولات فيصبح الفرد عاجزاً عن التعبير عن ذاته لأنَّ الطاقة الأخلاقية الكامنة بداخله تتحول إلى عكس مهامها التي وجدت من أجلها، فالوعي الحقيقي قد زُيّف وأخذ ينزع نحو الجمود والثبات. وتتفشى داخل هذه المجتمعات الأمراض الأخلاقية التي تتجلى في قابلية الفرد للخضوع، وسهولة شعوره بالرضى والاطمئنان الداخلي. إنها حالة من الوعي الأخلاقي بُنيت وتراكمت على آليات وفعاليات غير منسجمة مع الواقع الموضوعي، لتصبح الحالة السيكولوجية للفرد أقرب إلى الانفعال منها إلى الفعل، وتتحول عواطفه ومشاعره من عنصر خلاق لمكوناته الشخصية إلى ملكية مستباحة، ويصبح هدفاً سهلاً للخطب والمواعظ الهادفة إلى استهلاك ما تبقى منه لغايات وأهداف بعيدة عن صلاح المجتمع، وسلامة الفرد. وهذا يعدُّ بالمقاييس العلمية تدميراً شاملاً للمكونات الحيوية في شخصية الفرد، فيغيب الواقع الموضوعي عن أطر النشاط الإنساني داخل هذه المجتمعات، وتُستباح البيئة الحياتية من طرفين، الطرف الأول: هو المجتمع نفسه، حيث تتراكم المشكلات البيئية التي تكاد أن تكون خاصة بالمجتمعات النامية، وأخطرها على الإطلاق هي مشكلة التزايد السكاني، الذي يُؤدي إلى كوارث إنسانية داخل التركيبة الاجتماعية لهذه المجتمعات، ويَزيد من حجم الصعوبات والمعوقات التي تقف بطريق الإصلاح والتنمية، وإعادة بناء هذه المجتمعات من جديد. أما الطرف الثاني في استباحة البيئة الحياتية للمجتمعات النامية، هي البلدان المتقدمة التي

تجد في حالة الضعف هذه فرصة سانحة للقيام بعملية النهب المتواصل لثرواتها واستنزاف مواردها الطبيعية، وجعل أراضيها مرتعاً خصباً لدفن نفاياتها السامة، فضلاً عن الكثير من النشاطات الأخرى التي تقوم بها المجتمعات المتقدمة على أراضي البلدان النامية، التي تُسهم بالإساءة إلى البيئة الحياتية وتدميرها تدريجياً. أما في البلدان المتقدمة فمع تطور العقل، ليغطي هذا التطور النشاطات الإنسانية كافة، إلا أن الوعي الأخلاقي قد أخفق في بناء ذاته بشكل علمي ومدروس، فوقع في الطرف الآخر من المعادلة، حيث سُحبت الأخلاق من العقل، وتحول إلى عقل منفلت غير مبرمج إنسانياً، وتحول دور الأدوات التي صنعها إلى عكس مهامها، بحيث أصبحت غاية بحد ذاتها، وأصبح الإنسان هو الوسيلة ضمن برنامج طويل الأمد للاستحواذ على خيرات الأرض المادية، بوصفها الغاية القصوى، مخالفاً بذلك أبسط المبادئ الأخلاقية وأكثرها رسوخاً في التجربة الإنسانية، وهي أن الإنسان هو غاية عليا لجميع أوجه الحياة، وما هو خارج الإنسان هو وسيلة لتحقيق هذه الغاية. وبهذه الطريقة المعكوسة لإدارة العقل وتشويه مقاصده النبيلة أصبح الإنسان يدور ضمن هذه المأساة ويُشيء نفسه ويُشيء الآخرين, يلهث وراء المادة, في ظل غياب شبه كامل للبنية الأخلاقية، التي عُزلت تماماً، وفق الشروط والأسس التي سبق شرحها، لكن هذا لا يعني أن البشرية عاجزة عن إعادة إنتاج ذاتها مرة أخرى، و تعويض مافاتها، وإعادة ترتيب الأولويات بحيث تصبح عملية بناء الإنسان من الداخل لها الأولوية في صناعة مستقبل جديد للبشرية، وحركة العصر الجديد تشمل مجالاً واسعاً في الاهتمامات، وهناك الكثير من الجماعات والمنظمات والمؤسسات العالمية ذات الاهتمام البيئوي، التي تهتم بحماية الأنواع المهددة بالانقراض، والزراعة العضوية والحياة المشاعية، وتكنولوجيا البدائل والبساطة الطوعية، والحفاظ على الطاقة والموارد الطبيعية، ونزع السلاح النووي، والتصدي لجميع المشكلات الأخرى التي تعاني منها البيئة الحياتية، كي نعيش أكثر تآلفاً مع الكوكب. ويمكن النظر إلى هذه الحركات، التي تمثل العصر الجديد بوصفها

تُجسد الطرائق الكثيرة التي يسعى البشر من خلالها إلى ترجمة الحلم إلى واقع. ولو نفذت القرارات والتوصيات التي تخرج بها هذه الحركات من خلال المؤتمرات والندوات والنشاطات الأخرى التي تقوم بها، لما كان هناك مشكلات بيئية على الإطلاق. ومنذ عام 1948قرر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من أمم الأرض المجتمعة في باريس، "أن فكرة حقوق الإنسان تنطلق من النظرة إلى الإنسان كقيمة بحد ذاته، وليس رقماً أو وسيلة، ولكل إنسان الحق الطبيعي في الحياة، وعلى القانون أن يحمي هذا الحق، وهذا لا يتضمن الأسس الجنائية فقط، بل يتعداه إلى الأسس البيئية،... إنّ الحق في الحياة يستلزم بالضرورة الحق في الحصول على بيئة سليمة تتضمن استمرار شروط الحياة[1]. ونص إعلان لاهاي لحماية البيئة وطبقة الأوزون أن كل الحقوق تنبع من حق الحياة، واليوم تتهدد أساسيات الحياة في كوكبنا لما يتعرض له الغلاف الجوي للأرض من مخاطر عميقة. ونظراً لأنّ المشكلة تشمل بعدها الكوكب كله، فيجب أن تقترح الحلول على مستوى شامل، ونظراً لطبيعة مثل هذه الأخطار فإنّ الإصلاحات المأمولة يجب ألاّ تتضمن المسؤولية الأساسية من حيث صون النظام البيئي فقط، بل أيضاً حق الإنسان في بيئة صالحة للحياة وما يتبع ذلك من مسؤولية لمجتمع الدول بكل أجيالها الحاضرة والقادمة لعمل ما يمكن عمله من أجل صون نوعية الغلاف الجوي[2].

وفي عام 1990 اجتمعت في لندن اللجنة التحضيرية للاجتماع الثاني للدول الموقعة على بروتوكول مونتريال، فأقرت 56 دولة اتفاقاً تاريخياً لحماية طبقة الأوزون، وشملت الاتفاقية أيضاً حظر تصنيع عدد كبير من المواد الكيماوية[3]. وقد أكد مؤتمر استوكهولم للبيئة المنعقد عام 1972 أن للإنسان حقاً أساسياً في الحرية و

---

[1] صباغ، مروان يوسف، البيئة وحقوق الإنسان، ص40–41.

[2] ارناؤوط، محمد السيد، الإنسان وتلوث البيئة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993، ص326.

[3] المرجع السابق نفسه، ص329.

المساواة، والظروف اللائقة في بيئة ذات نوعية تؤمن للإنسان حياة كريمة[1]، وتضمن وثيقة ديو بشأن البيئة والتنمية، عدداً لا بأس به من المبادئ التي توضح مستوى الإدراك لمشكلة البيئة، وقد نصت هذه المبادئ على أن الجنس البشري يدخل في صميم الاهتمامات المتعلقة بالتنمية المستديمة. ومن أجل تحقيق ذلك تكون حماية البيئة جزءاً لا يتجزأ من عملية التنمية، وتتعاون الدول بروح من المشاركة العالمية في حفظ النظام الايكولوجي للأرض وبالنظر إلى المساهمات المختلفة في التراجع العالمي للبيئة تتعاون الضغوط التي تلقيها الدول المتقدمة على كاهل البيئة الحياتية، على مستوى العالم، تتحمل هذه الدول كافة مسؤولياتها. وتضع الدول قانوناً وطنياً بشأن المسؤولية والتعويض فيما يتعلق بضحايا التلوث وغيره من الأضرار البيئية، وتتعاون الدول أيضاً على وجه السرعة، وبشكل أكثر اتساعاً في زيادة تطوير القانون الدولي بشأن المسؤولية والتعويض عن الآثار السلبية للأضرار البيئية[2].

وبالطبع هذا غيض من فيض من الرحلة الطويلة و الشاقة التي قطعتها البشرية في مجال حقوق الإنسان، وقد بذلت الإنسانية جهداً متواصلاً عبر القرون، لتصل إلى مرحلة التقنين التشريعي ووضع نصوص وضعية استقرت في أحكام القانون الدولي بعد أن تجلّت في الضمير الإنساني، إلا أن رحلة حقوق الإنسان هذه ما زالت لا تتعدى مرحلة الإنجاز الفكري، ومع الثمن الغالي الذي دفعته الإنسانية ثمناً لهذا الإنجاز، إلا أننا وعلى النطاق الإنساني العالمي ما زلنا نعيش مرحلة بدائية متخلفة، حيث يتجلى العجز شبه التام لجميع قوى الخير والسلام في انتزاع القرار الفاعل في تحويل هذه الرؤى والرغبات إلى حيز الواقع. إنَّ جميع هذه الحركات البيئية الحديثة التي استطاعت حتى الآن أن تدخل إلى أعماق المأساة وتشكل –إلى حد ما– أداة ضغط على الحكومات، كي تقوم بخطوات جادة من أجل تحسين الظروف البيئية. لا

---

[1] صباغ مروان يوسف، البيئة وحقوق الإنسان، ص46.

[2] السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، القاهرة، عدد 110، أكتوبر 1992، ص153–154.

تتعدى كونها انفجارات عاطفية متحمسة. وإذا اتخذنا الولايات المتحدة مثالاً على ما يجري في العالم، هذا البلد يُعدُّ أكثر بلد رسخت فيه الحركة البيئية وبُذلت فيه أكبر الجهود، ومنذ أوائل السبعينيات سُنت في البلاد قوانين أساسية قصد منها إزالة تلوث الهواء والماء، وتخليص البيئة من المواد الكيماوية السامة، ونفايات المدن، وتكونت جماعات فعالة للضغط على أعضاء مجلس الشيوخ وتكاثرت المنظمات المحلية، واحتلت قضايا البيئة مكاناً مهماً في حياة البلاد السياسية[1]. إلا أن ذلك لا يشكل إلا الجانب المزيف لهذه المسألة، فمع أن الولايات المتحدة قد طورت تقانات هائلة للمحافظة على البيئة الحياتية، إلا أن ذلك لا يتعدى نوعاً من السلوك غير المتقن الذي يهدف إلى تغطية الجانب الواقعي من السلوك الذي تمارسه هذه الدولة ليس على أراضيها فقط، إنما على المستوى العالمي. فبجميع المعايير تُعد الولايات المتحدة أكبر مخرب للبيئة الحياتية على الصعيد العالمي، وهي من خلال مؤسساتها الاقتصادية الضخمة، تجتاح العالم، وتستخدم جميع المبررات النظرية الخادعة من أجل التدخل في شؤون الدول النامية من أجل نهب ثرواتها وزيادة نسبة الفقر فيها، وإذا تأملنا القوانين الاقتصادية الجائرة التي تطوق بها دول أمريكا اللاتينية، فسوف ندرك حجم الدمار الذي ألحقته بشعوب هذه المنطقة من العالم، وبالصيغة نفسها تمتد بصماتها القاتلة إلى القارة الأفريقية والآسيوية، حتى أوروبا نفسها لم تسلم من الأذى جرّاء السياسات الواقعية للولايات المتحدة، وكل هذا ينعكس بشكل أساسي على البيئة الحياتية. وكما أوضحنا سابقاً فإنَّ الطرح النظري مسألة والواقع العملي مسألة أخرى. وعلى صعيد الطرح النظري فإنَّ الولايات المتحدة تُعدُّ الدولة الأكثر حرصاً على حقوق الإنسان ليس فقط ضمن حدود ولاياتها، إنما في جميع أنحاء العالم، أما على صعيد سياساتها الواقعية فتعدُّ أكثر قوة في العالم إساءة لحقوق الإنسان الأساسية. ونورد هذا كنموذج

[1] كومونر، باري، إقامة السلام مع الكوكب، ت: عارف حذيفة, منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996، ص22.

للازدواجية التي تُمارس من خلالها المسألة الأخلاقية على الصعيد العالمي، ونحن هنا لسنا بصدد تحميل الولايات المتحدة مسؤولية انهيار البيئة الحياتية في العالم، فهذه المسألة أعمق من ذلك كثيراً، وإن لم تكن الولايات المتحدة هي القوة المهيمنة عالمياً فسيكون مكانها دولة أخرى بالتأكيد لأن المشكلة لا تكمن في سياسة دولة، من الدول، إنما في مستوى تطور الإنسان بشكل عام ومستوى تطور الوعي الأخلاقي إنسانياً مقارنة بالمستوى الذي وصل إليه التطور في بقية مجالات الحياة الإنسانية، ولا حاجة بنا إلى التعمق أكثر كي نرى أن البشرية على حافة كارثة حتمية بسبب التناقض الرهيب بين مستوى التطورات التكنولوجية ومستوى التطورات الإنسانية بكل جوانبها الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية، إنَّ هذه التطورات التي دفعت بنا إلى الأمام حتى هذه اللحظة، قد تحتوي على بذور فنائنا. إذ يبدو أننا على أحد قرني هلال تاريخي متأرجح بين اتجاهين متصارعين، إما قفزة مفاجئة باتجاه أن نُصبح عضوية اجتماعية عليا عالمية، أوردة إلى الفوضى والانقراض المحتمل. ومن الواضح أن البشر إذا أعطوا الخيار، فإن معظمهم لم يختْر الكارثة بشكل واعٍ[1]، لكن الذي حدث للبشر أنهم فقدوا قدرتهم على الرؤية الواقعية لما يجري، وفقدت البشرية معنى الحب والتآزر، مما يحبط أي جهد يهدف إلى بلورة رؤية عالمية لمشاكل البيئة.

4- خاتمة:

إن المجتمع البشري إذا نظرنا إليه كمنظومة فإنه يبدو اليوم في حالة من التآزر المتدني وكما سنرى فإن كثيراً من الأزمات التي تواجههنا الآن، هي عبارة عن أعراض مميزة والأكثر عمقاً لهذه المشكلة المستترة. ومع أننا بقدر ما نحتاج تآزراً متزايداً في المجتمع، فإن هذا التآزر لن يتحقق ببساطة عبر التمني أو القرار الذهني أو الجدل أو القسر، لأن مقدار التآزر في المجتمع هو انعكاس للطريقة التي ندرك بها

[1] راسل بيتر. صحوة الكرة الأرضية، ص121.

ذواتنا بالنسبة للعالم من حولنا، فلكي نزيد التآزر سوف نحتاج إلى تغيير بعض الافتراضات الأساسية التي تكمن في لبِّ تفكيرنا وسلوكنا وهذا سوف يعني أن نتطور داخلياً بالقدر الذي نتطور فيه خارجياً[1]. إنه تطور أكثر جداره بالإنسانية من ذلك التطور الذي حذف الإنسان من جدول التطور، وحوله إلى وحش خرافي، يلتهم كل ما أنجزته الطبيعة خلال ملايين السنين، ويسيطر على الظاهرة التطورية نفسها. ولم تعد الطبيعة مستعدة لإعطائه أي معالم جسدية جديدة[2]، إنما هذه المسألة قد تذهب بنا إلى أبعد من ذلك كثيراً، لأن هناك جانباً من التطور لا يخص الطبيعة، إنما هو ملك للإنسان، وهذا الجانب هو التطور الروحي. فالإنسان قادر على تطوير نفسه روحياً، ولو فعل ذلك، لخرج من هذا المأزق، وهذه هي الخطوة الناقصة والتي لم يفعلها الإنسان. إن هذا التوازن في عملية التطور هو المستوى الذي كان يجب أن يصل إليه لكن الذي حصل هو حالة انفصال تام بين الإنسان وذاته الحقيقة الكامنة فيه، والمستعدة للتطور إذا وجدت الإرادة لذلك إن رأس حربة التطور الآن, الوعي الاستبطاني. إذا كان التطور حتى الآن هو بالفعل اندفاع نحو مستويات أعلى من الاندماج، فإن أكثر التغيرات حسماً سوف تحدث في حقل الوعي البشري ووعي الذات على وجه الخصوص[3]، هذا إذا كان هناك ثمة أمل في حصول تغيرات إيجابية تدفع الإنسان بكل طاقاته إلى الأمام باتجاه مستوى أعلى من التطور الحقيقي. وحتى يحصل ذلك، لا بد من إجراء تغيرات في الطريقة التي نرتبط بموجبها بذواتنا وأجسامنا والأشياء المحيطة بنا، هذه التغيرات ستكون في حاجاتنا، وفي متطلباتنا من الآخرين ومن كوكبنا، وتغيرات في فهمنا للعالم. ولا يمكن إدخال النظرة الأخلاقية البيئوية الكلية حقاً إلى مواقعنا وسياساتنا وأفعالنا، ما لم يتم إدخالها أولاً إلى ذواتنا، فهذه الذات بأمس

---

[1] المرجع نفسه، ص123.

[2] نويل ، احيل . الدار وينية كما ترى اليوم ص –77.

[3] داسل ، بيتر، صحوة الكرة الأرضية ص123

الحاجة إلى أن تصبح حقيقة من حقائق الحياة العملية ومقدمة لا مفر منها لجميع أفكارنا ومدركاتنا ومشاعرنا وأفعالنا. نحن بحاجة إلى إدراك توحدنا الجوهري مع الطبيعية، ليس في فكرنا وعقلنا فقط، بل وفي مشاعرنا وأوراحنا أيضاً، ويجب أن يصبح ذلك جزءاً معترفاً به من واقعنا[1]. إن الانتقال العالمي إلى حالة من الوعي الأخلاقي يُشكل مطلباً أساسياً للإنسان، ودون هذا الانتقال فإن الحلول الحاسمة لمأساة البيئة الحياتية لن تكون سوى بناء هياكل مختلفة داخل إطار مغلوط تماماً، مما سيفوت الفرصة في إنقاذ الأرض ومن عليها.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه من خلال الرؤى الأدبية والفلسفية، ومن خلاله يستطيع الإنسان أن يبدع حالات إنسانية جديدة، هل البشرية قابلة للاستمرار في الحياة؟ أم أنها سوف تدمر ذاتها؟ لا إجابة مرضية عن هذا السؤال لأن المسألة التي يطرحها خارج إطار التنبؤ والتوقعات، لسبب بسيط وهو أن هذا السؤال متعلق بشكل أساسي بكل واحد منا نحن أعضاء العائلة الإنسانية، لأن البشرية خلافاً لباقي الأنواع الحية تستطيع في لحظة من تاريخها أن تستبق المستقبل، وأن تضع الخيارات الجديدة والواعية، وأن تغير مصيرها عن سابق عمد، وبجميع تنوعات الحالات التي يستطيع الإنسان أن يقذف نفسه إليها، يبقى هو القيم الأول على العملية التطورية على سطح الأرض، وسوف نبقى نحن أعضاء العائلة الإنسانية الجهة الوحيدة التي تمتلك الإمكانية، في تحديد مستقبل الأرض.

---

[1] المرجع السابق نفسه، ص165.

المصادر والمراجع

1. أرناؤوط، محمد السيد، الإنسان وتلوث البيئة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993م.
2. م هولي، جي رجيها، جي سلارك، الإنسان والبيئة، ت:عصام عبد اللطيف. منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد 1979م.
3. بدوي، عبد الرحمن، الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت 1976م.
4. رانغيه، لوبرانس ، العلم وسعادة الإنسان، ت: جميل أنيس سعيد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995م.
5. راسل، بيتر، صحوة الكرة الأرضية، ت: عدنان حسن، منشورات وزارة الثقافة. دمشق 1998م.
6. السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، القاهرة، العدد 110، اكتوبر 1992م.
7. صباريني، سعيد، رشيد الحمد، محمد، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 422, 1984م .
8. صباغ، مروان يوسف، البيئة وحقوق الإنسان، كومبيو نشر، بيروت 1992م.
9. الضاهر، عادل، الأخلاق والعقل، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1990م.
10. عطوي، عبد الله، الإنسان والبيئة، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت 1993م.
11. عطية، عاطف، عبد الغني عماد، البيئة والإنسان، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان 1998م.

12.كومونر، باري، إقامة السلام مع الكوكب، ت: عارف حديفة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996م.

13.نويل، إميل، الداروينية كما ترى اليوم، ت: وائل الأتاسي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1984.

14.معجم علم الأخلاق، إشراف ايخوركون، ت: توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو 1984.

15.المعجم الفلسفي المختصر، إشراف ي، ب يلبركا، ي، ك بانتنا، ت: توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، 1988م.

16.الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء، بإشراف م. روزنتال، ب. بودين ت. سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1980.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2005/4/3